

الحجاج بن يوسف الثقفى

طاغية بنى أمية

تظل الشعوب الخاضعة للطغاة تعلم يوم الخلاص وتنتظر الفجر ،
لأنها تؤمن بأن الظلام لا يدوم وأن الظلم مهما طال فهو قصير
الأمد فى حياة الأمم والدول والمجتمعات .

والحجاج بن يوسف الثقفى شخصية من لون جديد لم يكن
على عرش دولة ما ، ولكنه كان أقوى من الجالس على العرش ،
وأعطى من المتحكم فى السلطة وأعطى من صاحب الصولجان ،
إنه الحجاج بن يوسف الثقفى سيف بنى أمية على أعدائهم والذى
قال عنه الحسن البصرى - شيخ الإسلام الذى بلغ فى العلم والتقوى
حدًا جعله أشبه التابعين بالأنبياء - قال عن الحجاج :

« يا أخبت الأخشين وأفسق الفاسقين ، أما أهل السماء فمقتوك
وأما أهل الأرض ففروك ، أبى الله تعالى للميثاق الذى أخذه على
أهل العلم ليبينه للناس ولا يكتمونه » .

ومن النادر أن نقرأ كتابًا فى التاريخ الإسلامى إلا وجدنا للحجاج
فيه ذكرًا كثيرًا أو قليلًا ، هذا الرجل خرج من سواد الأغمار إلى

ضوء القيادة والرياسة والحكم والشهرة وأصبح بفضل ملكاته وحدها من سادات عصره وأصحاب القول فى شئون الجماعة الإسلامية على أيامه .

وكعادة معظم الطغاة ، فإن أفعالهم وأعمالهم وانفعالاتهم وما يورثه ذلك لهم من الأمراض فإنه يموتون فى سن مبكرة ، هكذا مات نابليون وهكذا مات أتاتورك ، وهكذا مات روزفيلد ، وهكذا مات نيرون ، نعم لقد مات الحجاج وهو لم يتجاوز الثالثة والخمسين .

عاش أعظم أحداث الدولة الأموية ، ووقع فى أخطاء اشتد نقد أهل عصره لها ولكنه لم يعأ بشيء لا بأعراض الناس ، ولا بالهزائم والنكسات التى ألمت به بل سار فى طريقه ، الغرور يعميه والثقة المفرطة تجعله غير هياب لكل ما أحاط به من نوائب الدهر وقساوة الزمن مما كان سبباً فى غضب الناس عليه ووضع فى عداد الجبابرة الطغاة .

كان الحجاج ذكياً فظناً ، ووضع نفسه فى خدمة الدولة الأموية مؤمناً بأن خلافة بنى أمية خلافة شرعية ، ورغم أنه كان يرى نقائص بنى أمية وأخطاءهم إلا أنه كان يراهم أفضل وأقدر من العلويين من منطلق إن الخلافة مسئولية وليست وراثية لأن الكفاية وحدها تعطى الحق .

وكان جمهور المسلمين غير راض على خلافة بنى أمية إذ أن معظمهم كان يرى أن بنى أمية اغتصبوا الخلافة ، وأنهم يتمدون

على القوة العسكرية لتثبيت حقوقهم وفاتهم أن الملك لا يقوم على القوة إلى ما لا نهاية وأن القوة لا يمكن أن تدوم إلى الأبد وأن العنف لا يحل المشاكل الداخلية ، لأن الطغيان يزيدا تعقيدا ولا سبيل لحل المشاكل الداخلية لأن الطغيان يزيدا تعقيدا ، ولا سبيل لحل المشاكل إلا بالتعاون بين الحاكم والمحكوم من خلال جسور الثقة والعدل .

وأسوة بكل الطغاة ، تولى الحجاج الحكم دون سابق تجربة أو علم فانصبت على رأسه لعنات الشعب ، ولم يعرف الحجاج غير لغة السوط ولسان القوة وأسلوب العنف للتحايل على الناس ، وللتعامل مع المحكومين ولم يفكر مطلقاً فى استخدام شئ من التفكير وحوار العقل وقد عاش الحجاج عصرى عبد الملك بن مروان ، وولده الوليد بن عبد الملك ونجح الاثنان فى اتخاذه مخلب قط لينعما هما بالسلطان .

من هو الحجاج :

من أبرز رجالات ثقيف الذين لعبوا دوراً بارزاً فى التاريخ الإسلامى بوجه عام ، وفى تاريخ بنى أمية بوجه خاص ، وقد ظل طوال ربع القرن يحتل مكانة الرجل الثانى بعد الخليفة فى الدولة الأموية ، وقد ولد الحجاج عام ٦٦١م وتوفى عام ٧١٤م (أى ٤١ -

٩٥هـ) ، ولاشك أن شخصية الحجاج قد تأثرت إلى حد ما بالعصر الذى عاش فيه ، ذلك العصر الذى شهد الكثير من عوامل الفرقة والتمزق والخلاف والانتقام والعصية القبلية موجودة ، تلك العصية التى كانت إحدى الصفات الرئيسية لكيان العرب السياسى قبل الإسلام لم تختف فى صدر الإسلام وإن كانت قد خفت حدتها مؤقتا لتعود قوية مؤثرة خلال العصر الأموى ولكن يجدر بنا قبل الكلام عن الصفات الشخصية للحجاج والعوامل التى خلقت منه طاغية أن نذكر المسرح السياسى الذى لعب دوره عليه ، وأمكنا أن نؤكد أن الحجاج كان نبت ظروف قاسية أملت بالدولة التى عاش للدفاع عنها وهى الدولة الأموية .

ومن الناحية السياسية كانت الفتنة التى حدثت بين المسلمين فى نهاية عهد عثمان ، والتى أدت إلى اغتياله ثم اغتيال على بن أبى طالب ، ثم الفتن فى عهد معاوية وولده يزيد ، كل ذلك لم يعط الاستقرار السياسى للدولة العربية الجديدة وقد شعر عثمان بن عفان بالخطر الذى سيلحق الأمة الإسلامية قبل مصرعه فقال للزعماء الثائرين عليه - كما جاء فى تاريخ الطبرى (ج ٤) ، والكامل فى التاريخ (ج ٣) :

« فوالله لئن قتلتهمونى لا تحابون بعدى ولا تصانون جميعاً بعدى أبداً ولا تقاتلون بعدى عدواً جميعاً أبداً » وقال أحد الصحابة حين

بلغه قتل عثمان - كما جاء في كتاب طه حسين الفتنة الكبرى
(ج ٢) .

« لقد كنتم تحلبونها لبنًا فلن تحلبوها منذ اليوم إلا دماً » .

ومن هنا أصبح متعذر المحافظة على وحدة المسلمين إلا بالقوة
ولقد كانت الظروف التي سبقت الفتنة الكبرى في عهد عثمان
وما أعقبها ، هي المناخ الذي هبّ ظهور معظم الفرق الإسلامية
من شيعة وخوارج وغيرهم ، ولكن رغم الظروف السياسية فقد
كان هناك عازمان في تاريخ المسلمين خلال عصر الدولة الأموية
العام الأول هو سنة ٤١ (٦٦١ م) ، والذي أطلق عليه عام الجماعة
الأول حيث اجتمعت كلمة المسلمين على خلافة معاوية ، والعام
الثاني هو عام ٧٣ هـ (٦٩٢ م) حيث أطلق وهو العام الذي أعاد
فيه عبد الملك بن مروان الوحدة عليه عام الجماعة الثاني إلى الدولة
الإسلامية .

بيعة الأمر الواقع :

ولكن من الجدير بالذكر أنه إذا استثنينا أهل الشام فإن جمهور
المسلمين الآخرين لم يعطوا معاوية البيعة عن رضى واقتناع ، وإنما
قبلوا ذلك كأمر واقع لا مفر منه لوضع حد للحرب والفرقة الانقسام ،
وأحدًا لم ينس أبدًا للأمويين أنهم كانوا أخطر أعداء النبي ، وأنهم لم

يعتقوا الإسلام إلا في الساعة الأخيرة مكرهين ولعل ذلك جعل معظم المسلمين يعتقدون أن موقف الأمويين السابق من الإسلام لا يؤهلهم لقيادة الأمة الإسلامية ويبدو أن أسباب اتساع الهوة بين الأمويين ومعارضيتهم ظلت قائمة طوال الحكم الأموي حتى قيل : « ما تلاقي اثنان إلا وتحدثا في الأمويين وما اجتمع ثلاثة إلا وشرعوا في العمل ضدهم » .

والآن نعود إلى شخصية الحجاج ونسبه :

ينسب إلى ثقيف ، وهناك أسباب دفعت النسابة إلى تشويه نسب ثقيف في مقدمتها موقف ثقيف من النبي ومن الدعوة الإسلامية قبل دخولها الإسلام وتحالفها التقليدي مع بني أمية ، وكان الحجاج بن يوسف شديد التعصب لهذا النسب يدافع عنه ويغضب إذا نسب إلى غيره وقد أمد الخلاف حول نسب ثقيف أعداء الحجاج بمادة غنية خصبة في هجائه والتعريض به ، وكان عبد الله بن الزبير خلال فترة حصار الحجاج له يشتم ثقيفاً في خطبة الجمعة ويصفهم بأنهم :

« قصار الخدود ، لثام الجدود ، سود الجلود بقية ثمود » وكان الحجاج في معرض رده على هذه الادعاءات يقول « أنا بقية ثمود وهل بقي مع صالح إلا المؤمنون » . ومكانة ثقيف تعززت بشكل ملحوظ في ظل الدولة الأموية التي اعتمدت في العهدين السفليين والمرئيين على كثير من رجالات ثقيف في توطيد حكمها وسلطانها .

أين ولد الحجاج ؟

ولد الحجاج بن يوسف الثقفى فى الطائف - موطن ثقيف - فى قرية بنى صخر على جبل « الهدى » وإن كان أبو المحاسن فى كتابه « النجوم الزاهرة » يذكر أن الحجاج ولد فى مصر بالقسطنطينية ولكن ثبت خطأ ذلك من خلال كتابات معظم المؤرخين ، وأيضاً اختلف البعض فى سنة ميلاد الحجاج ولكن يكاد يكون مستقرّاً عليه أنها سنة ٤١هـ ، فالطبرى وابن الأثير يقولان : إن ميلاده كان عام ٤٢هـ بينما المسعودى وابن عساكر يقولان : إنها سنة ٤٠هـ ولكن الحجاج نفسه يقول إنه ولد سنة أربعين هـ ولعل هذا الاختلاف يرجع إلى عدم اهتمام المؤرخين المسلمين عامة بمولد الأشخاص قدر اهتمامهم بسنين وفاتهم التى تذكر بعد اشتهار أصحابها واسم الحجاج يعنى قاطع العظم لأنه لغويا كلمة « حججت العظم » تعنى قطعته ، ويعتقد بأن الحجاج لم يعرف صغيراً بهذا الاسم وإنما كان يسمى « كليبا » وعرف بالحجاج فيما بعد .

وقد ذكر المسعودى فى كتابه مروج الذهب : أن الحجاج ولد مشوهاً لا دير له فثقب عن دبره ، ومثل هذا القول لا يستبعد خاصة وأنه يحدث فى حالات نادرة لحدوث الولادة ، غير أن المسعودى بمضى فى روايته بعيداً محاولاً أن يبرر بها سبب ولوع الحجاج بسفك الدماء على حد تعبيره فيقول : إن الحجاج

بعد ولادته أبى أن يقبل ثدى أمه أو غيرها فأعياهم أمره ، وأنه يقال إن الشيطان تصور لهم فى صورة الحارث بن كلدة فقال اذبحوا جدياً أسود وأولفوه فى دمه ، فإذا كان فى اليوم الثانى فافعلوا به كذلك فإذا كان اليوم الثالث فاذبحوا له تيساً أسود وأدلفوه دمه ثم اذبحوا له أسود سالخاً فأولفوه دمه ، واطلوا به وجهه فإنه يقبل الثدى فى اليوم الرابع » وتنتهى الرواية بالقول بأنهم فعلوا به ذلك فكان لا يصبر على سفك الدماء ، ولا شك أنها أسطورة أكثر منها واقفاً تماماً كالأسطورة التى لحقت مولد جنكيز خان بأنه ولد وفى قبضته بقعة من الدم المتجمد ، وكل طائفة فى التاريخ ساق حوله البعض من هذه الأساطير ، وهكذا ولد الحجاج وأبى رواة الأساطير إلا أن يولفوه فى الدماء حتى الشمالة وقديماً قيل وما آفة الأخبار إلا روايتها .

ووالد الحجاج هو يوسف بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن عوف بن ثقيف ، ولكن المصادر لا تمدنا إلا بإشارات قليلة عن هذا الوالد ، ولكن جاء على لسان ابن خلدون أن والد الحجاج كان رجلاً تقياً على جانب من العلم والفضل والشرف قضى معظم حياته يعلم أبناءه القرآن وأصول الدين تقريباً إلى الله وطمعاً فى مشرته ، وكان للحجاج أخ أكبر هو محمد وأخت هى زينب ، وأم الحجاج هى « الفارعة بنت همام بن مسعود

الثقفي وكان جد الحجاج لأمه عروة ابن مسعود الذى كان أول شهيد مسلم فى الطائف .

ابن التحنية :

ولعل ذلك كله غريئاً كيف يكون الحجاج بمثل هذه الصورة ومع ذلك يصبح طاغية جباراً جامد القلب .

نقول إن هناك ظروف شخصية تحول الإنسان من صورة إلى أخرى وهناك ظروف عامة تجعلها أى هذه الشخصية تسلك طريقاً ما ، فالحجاج بتحالفه مع بنى أمية وضع نفسه فى حكم العداء مع آل البيت ، وارتباط مستقبل بنى أمية بالحجاج جعله سيقاً بتاراً لأعدائهم لا تهمة إلا النتائج وليس فى قاموسه أفكار العدل والرحمة .. كما أن المشتغل بالسياسة يبعد بنفسه عن القيم ويتأتى بسلوكه عن الأخلاق إذا كانت هذه القيم تتعارض مع الأطماع ومع الشهوة للتسلط والحكم ، ومن الجدير بالذكر أن بعض المصادر التاريخية تذكر - مثل رواية المسعودى - أن والدته الحجاج كانت متزوجة قبل والده من الحارث بن خالده طبيب العرب فى حين يذكر ابن عساكر أنها كانت زوجة المغيرة بن شعبة ، ولكنها طلقت بسبب اشتغالها بالسحر ويذكر « البلاذرى » أن والدته الحجاج تمنّت وهى عند المغيرة بن شعبة شرب الخمر والالتقاء بنصر بن الحجاج - الذى كان يوصف بأنه أجمل شباب المدينة مما اضطر عمر بن الخطاب

إلى نفيه إلى البصرة بعد أن افتنت به بعض النساء وسمع الفارعة
وهي تنشد في خدرها .

هل من سبيل إلى خمر فأشربها
أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

وقد استغل خصوم الحجاج بن يوسف هذه الحكاية فكانوا
يدعونه بابن المتمنية ... وسواء أكانت هذه الرواية صحيحة أم
أنها تلحق بجدة الحجاج فإنها ولا شك كانت عقدة نفسية حكمت
سلوكيات الحجاج قبل الكثير من البشر حاول أن يمحوها بأى
ثمن ... وتكاد المصادر تجمع على أن الحجاج لم يكن جميل
الشكل ، بل كان دميم الصورة وقد ورد فى المصادر أنه كان
صغير الجثة حمش الساقين منقوص الجاعرتين ، خفش العينين دقيق
الصوت أكرم الحلق ويقال إن رأسه كان كبيراً مستطيلاً كأنه غرس
بين كتفيه ، ولا شك أنه تأثر أيضاً بشكله الخلقى لأن ذلك جعله
لقمة سائفة لأعدائه لهجائه ، وكل ذلك أوجد فيه استعداداً للقسوة
والعنف وذلك كنوع من تغطية النقص الذى كان يحسه لعدم
حسن هيأته ، الأمر الذى ميز شخصيته بالميل إلى الشدة وقوة
البأس والتهجم حتى قيل إن الحجاج كان لا يضحك إلا نادراً .

أنا ابن جلا :

لما تولى عبد الملك بن مروان الحكم بعد وفاة أبيه بعهد منه
كانت حال البلاد الإسلامية فى غاية الفوضى والاضطراب فإن

الحجاز به عبدالله بن الزبير وقد بايعه أهله وبلاد العراق أنقسمت إلى ثلاث فرق ... زيرية بايعوا ابن الزبير ودخلوا في طاعته ، شيعة تدعو إلى آل البيت ، وخوارج وهم لا يريدون البيت الأموي أو البيت العلوي ، ويؤمنون أن من يستحق الخلافة هو صاحب الكفاءة ، ولكن بولاية مصعب بن الزبير من قبل أخيه عبدالله بن الزبير أمر العراق عاد العراق كله إلى عبدالله وبقي الأمر بالشام ومصر لعبد الملك بن مروان ، وتشجع عبد الملك وسار بقواته إلى العراق لإخضاعها حتى نجح في ذلك بعد أن هزم أهل العراق ، وقتل مصعب ولم يبق خارجاً عن سلطان عبد الملك إلا الحجاز فوجه وهو بالكوفة جنداً إلى مكة يقودهم الحجاج بن يوسف الثقفي في سنة ٧٢هـ ، فلما وصل مكة حصر ابن الزبير بها ورمأها بالمجانيق ، ولم يزل الأمر على ذلك حتى اشتدت الحال على أهل مكة من الحصار ففرقوا عن ابن الزبير وخرجوا بالإمامة إلى الحجاج ، وظل عبدالله يقاتل حتى قتل وأمر الحجاج بصلب جثته وكانت سنة ٧٣ سنة ولم يرحم الحجاج شيخوخته وبقتل ابن الزبير صفى الأمر لعبد الملك بن مروان في جميع الأمصار الإسلامية واجتمعت عليه الكلمة ولم يلبث في سنة ٧٥هـ أن عين عبد الملك الحجاج والياً على العراق فسار إلى الكوفة حتى دخل مسجدها فصعد المنبر وهو ملتئم بعمامة خز حمراء فاجتمع إليه الناس وهو ساكت قد أطل السكوت ثم كشف اللثام عن وجهه وقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
يا أهل الكوفة إنني أرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها وإنني لصاحبها
وكأنني أنظر إلى الدماء بين العمام والمحي « أما بقية الخطبة فإنها
لا تختلف في معناها ولهجتها عما تقدم » ، ولما فرغ الحجاج من خطبته
لم يفد أحد ممن كان بالمسجد ولم يظهر أحد استيائه وأمر الحجاج
غلامه بأن يقرأ على الناس كتاب عبد الملك فقرأ « بسم الله الرحمن
الرحيم .. من عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة بن المسلمين
سلام عليكم » غير أن أحداً من الحاضرين لم يرد السلام فأمر الحجاج
غلامه بالكف وأخذ يوبخ الناس ويتهدد ويتوعدهم قائلاً « والله
لاؤدبتكم غير هذا الأدب أولستقيمن » ثم أمر غلامه فأعاد القراءة
فقال الحاضرون « على المؤمنين السلام » .

سياسة الحجاج في الحكم :

ويتضح لنا أن سياسة الحجاج في حكم أهل العراق كانت سياسة
حزم ممزوجة بالظلم والجبروت ، ولا غرو فقد أخذ الناس بغير
هودة وقتلهم على الريّة والظن ولعل أشهر مواقع الحجاج كانت
ضد « ابن الأشعث » الذي شق عصا الطاعة على الخليفة فتعقبه
الحجاج حتى قضى عليه في معركة « دير الجماجم » ورغم حرب
ابن الأشعث إلا أن الحجاج احتال عليه حتى قتله ثم أسرف الحجاج
في قتل أسرى « دير الجماجم » بشكل جعلنا نقول إن حبه لسفك

الدماء كان يجري فى عروقه بلا رحمة إلى درجة أن الخليفة أرسل يقول له « إذا أعطاك الله الظفر على قوم فلا تقتل جانيًا أو أسيرا » . عاش الحجاج أكثر من عشرين عامًا فى الطائف قبل أن يظهر على المسرح السياسى وقيل إنه فى حادثة سنة عمل راعيًا للغنم كما عمل فى وقت لاحق فى دباغة الجلود ، وقال البعض إن الحجاج اشتغل بالتعليم مرحلة من حياته أسوة بأبيه يوسف وأخيه محمد .

ويبدأ ظهور الحجاج على المسرح السياسى وقت أن وقف هو وأبوه إلى جانب الأمويين منذ عهد يزيد بن معاوية حيث شاركًا سويًا فى موقعة « الحرة » إلى جانب قوات مسلم بن عقبة ضد أهل المدينة وقيل إن الحجاج وأباه فرا فى بداية المعركة على جمل بطيء وقد اعترف الحجاج بهذا الفرار ، ثم يجيء الحجاج هو وأبوه مع حملة مروان بن الحكم على مصر حيث يقيان حوالى الشهرين فى القسطنطينية ثم يشاركان الحجاج ووالده فى الحملة البرية التى أرسلها مروان بن الحكم أيضًا إلى الحجاز للقضاء على عبدالله بن الزبير ، وقيل إن هذه المعركة كانت درسًا قاسيًا للحجاج فقد أسر معظم رجال الحملة وفر الحجاج بن يوسف ووالده راكضين لحوالى ثلاثين ميلًا ويطلق على هذه المعركة اسم معركة « الريدة » وهى قرية من قرى المدينة على بعد ثلاثة أيام منها وفيها دفن الصحابى المعروف أبوذر الغفارى .

وكانت أول ولاية يتولاها الحجاج هى بلدة بئال ولكن استهان

بها ولم يدخلها وذلك لتطلعه إلى ولاية أرقى وأوسع ولم تلبث الظروف السياسية الصعبة التي واجهت عبد الملك بن مروان في بداية خلافته أن ساعدت على إتاحة الفرصة للحجاج للظهور على المسرح السياسي .
تولى الحجاج ولاية الحجاز بين سنتي ٧٢ ، ٧٥ هـ ثم تولى العراق بعد سنة ٧٥ هـ ثم أصبحت له الولاية على خراسان فعين المهلب بن أبي الضفere نائباً عنه فيها وذلك سنة ٨٠ هـ وفي سنة ٨٩ عين الحجاج والياً من قبله على « سجستان » .

شهادة الكفر أولاً !!

وقد ثار الناس ضد الحجاج وخلعوه لقسوته وباعوا بدلاً عنه عبد الرحمن ابن الأشعث وانتصر ابن الأشعث في عدة مواقع ضد الحجاج ولكن الحجاج انتصر في النهاية وكان انتقامه من عدوه مروغاً .
ولقد عرض عبد الملك بن مروان على أهل العراق عزل الحجاج والاعتراف بالخلافة للبيت الأموي ، ولكن أهل العراق رفضوا ذلك وصحموا على خلع عبد الملك فكان أن أطلق عبد الملك عليهم الحجاج واستمرت معارك دير الجماجم مائة يوم وكانت نهايتها ١٤ جمادى الثانية سنة ٨٣ هـ .

وبعد الهزيمة بدأ الناس يبايعون الحجاج من جديد فلا يرضى ببايعتهم إلا إذا شهدوا على أنفسهم بالكفر فمن شهد نجا ومن أبى قتله .

ولا شك أن فتوحات الحجاج من خلال عماله « ولاته » فيما وراء الهزيمة أدت إلى لصق الكثير من التهم به لأنه كان قاسياً في معاملاته مع شعوب تلك البلاد وكان حريصاً على ملء خزائن الدولة بالجزية وفي نفس الوقت لم يترك أية فرصة دون أن يمثل بأعدائه بل كان حرصه على أن يكون سيفه أسبق من لسانه هو شكل الارهاب الذى يجب أن يزرع فى القلوب .

قتل الاسرى :

ولعل أوثق التهم التى لصقت بالحجاج كان حرصه على قتله الأسرى إما للترهيب وإما لأنه كان يرى أن الإنفاق عليهم تبديد لأموال المسلمين وحتى يكونوا عبرة لغيرهم حتى لا يثوروا ضد بنى أمية .

مساوئ الحجاج وطغيانه :

حاول الحجاج أن يوقع بزعيم الشيعة فى عهده محمد بن الحنفية وأن يقبض عليه ويرسله مكبلاً بالحديد من العراق إلى الشام ولكن عبد الملك بن مروان منعه من ذلك وحاول قتل الشاعر الثقفى محمد بن عبد الله الثقفى للغزل بأخته لولا الخليفة ولكن أسوأ ما يلصق بتاريخ الحجاج بعد ضربه الكعبة والمسجد الحرام بالمنجنيق ، واستباحته كميدان قتال وكانت هذه سبة فى جبين الحجاج لأن مكة المكرمة

اعتبرت في نظر الإسلام والمسلمين مدينة محرمة لا يحل القتال فيها
فقد روى عن الرسول في خطبته يوم الفتح .

« إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى
يوم القيامة فلا يحل لأمرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها
دمًا » .

ولعل أشهر ما قيل في الحجاج ولازال حتى الآن يردد من
أقوال ما قاله الشاعر « عمران بن حطان » الذي عبر الحجاج لإحجائه
عن منازل شبيب وزوجته غزاله فقال عن الحجاج : « أسد على
وفي الحروب نعمة » وكان الحجاج يؤخر صلاة الجمعة حيث
كان يخطب الناس خطبًا طويلة تستغرق الساعات فاتهمه الناس
بإمالة الصلاة وحاربوه من أجل إحياء وقتها .

ولقد تعددت زوجات الحجاج - كمادة أهل ثقيف - فكان
يحتفظ بأربعة ثم يطلق من يرى إذا ظهرت في الأفق امرأة
جديدة وكان لديه الكثير من الإماء .. ومن أشهر زوجاته هند
بنت النعمان بن بشير الأنصاري أحد الصحابة المشهورين الذين
نزلوا بالشام وكانت جميلة فاتنة ، ذات أدب وفصاحة ، أنجب
منها الحجاج ولدين هما إبان وعبد الملك ولكن قيل إن الحجاج
طلقها لأنه على حد بعض الروايات دخل عليها فرأها تنظر في
المرآة وتقول :

فإن ولدت فحلا فله درها
وإن ولدت بغلا فجاء به البغل
وما هند إلا مهرة عريّة
سليلة أفراس تحللها بغل

ريحانة . . لا كهرمانة !

وتعتبر هند بنت المهلب بن أبي صفرة من أبرز زوجات الحجاج ،
وباختصار يمكن القول أن هذا الطاغية تزوج أكثر من عشرة نساء
كانت أشهرهن أم كلثوم ابنة عبدالله بن جعفر بن أبي طالب الذي
طلقها بأمر الخليفة خوفاً من تحول ولائه للبيت العلوي وكان الحجاج
يرى المرأة ريحانة وليست بكهرمانة أي أنها خلقت للتمتع بجمالها
ولا ينبغي لها التسلط على زوجها .

عاش الحجاج مواليا لبنى أمية دون أن يقيم وزناً لسخط الرأي
العام وكان يعلم بكره الناس له ، ولا يعبأ بهذه الكراهية ، وكانت
الثقة بينه وبين أهل العراق معدومة حتى روى عنه قوله : أهل
العراق هم أهل الثقافة والنفاق ومساوي الأخلاق ثلث مارق وثلث
منافق وثلث سارق .

ولقد كان الحجاج في الواقع - كما يقول بن خلكان - « له
في القتل وسفك الدماء والعقوبات غرائب لم نسمع بمثلها » وهو

بلا شك طاغية بنى أمية وطغيانه غدا أسطورة تعبر عن حقيقة بطشه وظلمه وقسوته ، إلى أن توفاه الله حيث كان الحجاج يشكو من الإرهاق والتعب والإعياء ويعانى من ارتفاع فى الضغط وقرحة فى المعدة ويشكو من الصداع وطنين الأذنين وعسر الهضم وكأن أمراض البشر المستعصية قد وجدت من أجله ، وقيل إنه تعذب كثيراً حتى طلعت روحه إلى السماء وأن أحداً لم يترحم عليه وقد دفن بمدينة واسط فى شوال سنة ٩٥هـ وبدا انتهى طاغية من الطغاة أذل الرقاب وشعمكم فى العباد ، وحطم الأوتاد وكان جباراً استحق من السماء أسوأ أنواع العقاب .